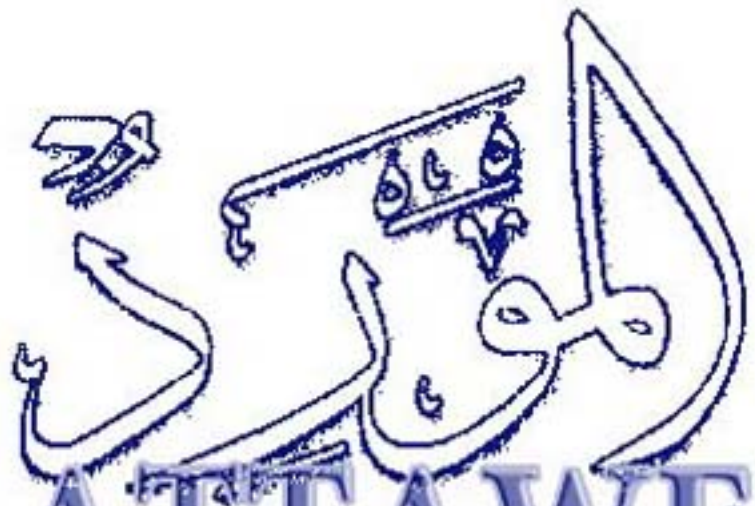

WWW.ATTAWEEL.COM

مجلة تراثية فصلية محكمة

تصدرها وزارة الثقافة - دار الشؤون الثقافية العامة

المجلد الخامس والثلاثون

العدد الثاني - ٢٠٠٨م - ١٤٢٩هـ

رئيس مجلس الادارة / نوفل ابو رغيف

الهيأة الاستشارية

أ.د. خديجة الحديثي

أ.د. جواد مطر الموسوي

أ.د. فليح كريم الركابي

أ.د. داود سلوم

أ.د. مالك المطلبي

الأستاذ حسن عريبي

رئيس التحرير

د. محمد حسين الأعرجي

هيأة التحرير

نائب رئيس التحرير

احمد عبد زيدان

سكرتير التحرير

محمود الظاهر

التصحيح اللغوي

نجلة محمد

امل عبد الله

سليم سلمان

الإشراف الفني والتصميم

جنان عدنان لطيف

الأسعار

العراق: ٥٠٠ دينار، الأردن: دينارات، الإمارات: ٣٠ درهماً، اليمن: ٣٠ ريالاً، عصر: ٣ جنيهات، ليبيا: ٣ دنانير، الجزائر: ٦٠ ديناراً، تونس: دينارات، المغرب: ٣٠ درهماً.

عنوان المراسلة

دار الشؤون الثقافية العامة
- الأعظمية -
ص. ب: ٤٠٢٢ بغداد
جمهورية العراق
هاتف: ٤٤٢٦٠٤٤
فاكس: ٤٤٨٧٦٠

المشاركة السنوية

٢٥ دولاراً في الأقطار العربية، في دول العالم الاخرى ٨٠ دولاراً.

dar-iraqculture@yahoo.com
dar-iraqculture@hotmail.com

جهود العرب في العلوم الطبية

في العصرين العباسي والاندلسي

أ . د. حسين امين

مارس العرب مهنة الطب في عصورهم الجاهلية، وكانت علاجاتهم الطبية مزيجا من التجارب الطبية والمعتقدات الدينية السائدة وقتذاك. وهذا أمر طبيعي فقد كانت تمارس تلك بالوسائل البدائية البسيطة. وما أن احتك العرب بالمصادر الواسعة التي تبحث في شتى العلوم والآداب والفنون، ومن بينها علوم الطب، حتى انبرى للإفادة منها عدد غير قليل من العرب الذين انقطعوا لطلب العلم والمعرفة وصاروا الرواد الأوائل من حملة العلم، فأضاءوا الطريق أمام الأجيال الهادفة الى سبيل الثقافة الانسانية.

وما أن برزت حركة الترجمة في الدولة العربية حتى تصدى بعض العلماء الى ترجمة كتب الطب من اللغات الأجنبية وبالأخص من اللغة اليونانية. وكان الخلفاء والأمراء والوزراء والموسرون يشجعون على الترجمة ويبذلون بسخاء للمترجمين، إما لحاجتهم الى معلومات طبية تفيد في معالجة ما أصيبوا به كما حصل زمن المنصور العباسي، أو رغبة في العلم ونشر المعرفة كما كان في أيام المأمون.

وكان لإنشاء دور العلم والحكمة في بغداد والموصل والقاهرة وتونس وغيرها من حواضر العالم العربي والاسلامي أثرها الكبير في نشر العلوم والآداب، وكانت تلك الدور ينابيع أصيلة يرتوي منها الراغبون في العلم وكسب المعارف، كما كانت تلك الدور مراكز للنسخ والبحث والتفسير والدراسة، يذكر القفطي أن محمد بن موسى الخوارزمي كان منقطعاً الى خزانة كتب الحكمة للمأمون وهو من أصحاب علم الهيئة وكان الناس قبل الرصد وبعده يعولون على زيجيه الأول والثاني ويعرف بالسندهند"[1].

وانتشرت علوم الطب نتيجة الدراسات العلمية وتعرف العرب على كثير من المجهودات التي توصل اليها من سبقوهم في هذا الموضوع، وقد برزت تلك العلوم بشكل واضح بيّن في العصر العباسي، حيث ظهر الأطباء الكبار الذين كانت لدراساتهم وإنجازاتهم العلمية الآثار الكبيرة في تطوير الطب وازدهاره.

ومن الجدير بالذكر أن لمدرسة (جنديسابور) التي شيدها الملك الساساني شابور الأول الأثر البالغ في مد مدينة بغداد ومعاهدها العلمية بعدد غير قليل من الأطباء الذين كانوا

يعملون في نشر العلوم الطبية ومعالجة المرضى، ومن الملاحظ أيضاً أن مدينة جنديسابور أصبحت ملجأ لكثير من العلماء النساطرة الهاربين من تعسف الدولة البيزنطية، فوجدوا الحماية والرعاية من حكام بلاد فارس.

وتذكر المراجع التاريخية أن أبا جعفر المنصور أدركه ضعف في معدته وسوء استمراء وقلة شهوة، وعجز أطباؤه عن معالجته فأمر الخليفة بجمع الأطباء، وقال لهم: أريد من الأطباء في سائر المدن طبيباً ماهراً. فقالوا: ما في عصرنا أفضل من جورجيس بن بختيشوع رئيس أطباء جنديسابور، فإنه ماهر في الطب وله مصنفات جليلة، فنجح الخليفة أبو جعفر المنصور في إحضاره الى بغداد، وأمر بإنزاله في أجمل موضع من دوره وأكرمه غاية الإكرام، ولم يزل جورجيس بن بختيشوع يتلطف له في تدبيره حتى برئ المنصور وعاد الى الصحة. وبعد أربع سنوات مرض الطبيب جورجيس بن بختيشوع والتمس من الخليفة الانصراف الى بلده جنديسابور، وسمح له الخليفة بالسفر وأهداه عشرة آلاف دينار، وبعث معه من يوصله كما أمر المنصور بإحضار الطبيب عيسى بن شهلا وهو من تلامذة ابن بختيشوع[2].

ويبدو أن الأطباء كانت لهم منزلة رفيعه عند الخلفاء وعامة الناس، كما كانت مواردهم كبيرة، وهذا ثبت ما كان لجبرائيل بن بختيشوع من الرزق والرسوم والصلات، فقد ذكر ان رزقه كان برسم العامة في كل شهر من الورق عشرة آلاف درهم وبرسم الخاصة في المحرم من كل سنة من الورق خمسون ألف درهم وثياب بقيمة عشرة آلاف درهم، ولفصد الرشيد دفعتين في السنة مائة ألف درهم، ولشرب الرشيد الدواء دفعتين في السنة مئة ألف درهم، ومن اصحاب الرشيد كل سنة على ما فصل مع ما فيه من قيمة الكسوة وثمن الطيب والدواء من الورق أربعمائة ألف درهم. ومن غلة ضياعه بجنديسابور والسوس والبصرة والسواد في كل سنة ثمانمائة ألف درهم، وكان يصير اليه من البرامكة في كل سنة ألف ألف وأربعمائة ألف درهم[3].

وفي بغداد عاصمة العباسيين كان في سنة ٣١٩هـ ـ ٩٣١م عدد كبير من الأطباء، وذكر أن رجلا من الأطباء غلط على رجل فمات، فأمر الخليفة المقتدر بالله محتسبه أبا بطيحة، بمنع جميع الأطباء إلا من امتحنه سنان بن ثابت[4]، وكتب له رقعة بما يطلق له التصرف فيه من الصناعة وأمر سناناً بامتحانهم وأن يطلق لكل واحد منهم ما يصلح أن يتصرف فيه من الصناعة وبلغ عددهم في الجانبين من بغداد ثمانمائة ونيفا وستين رجلا سوى من استغنى عن امتحانه باستشهاره بالتقدم في الصناعة، وسوى من كان في خدمة السلطان[5].

إن هذا العدد الضخم من الأطباء في بغداد، يدل بوضوح على التقدم الاجتماعي الكبير الذي بلغته مدينة السلام أيام العباسيين واهتمام الناس بأمورهم الصحية، ولتوافر الأمكنة التي تعمل على إعداد وتأهيل الأطباء.

ونبغ في الاسلام أطباء كبار طبقت شهرتهم الآفاق وكانوا نوادر عصرهم وفرائد دهرهم، وكان الطبيب الاسلامي الكبير إضافة الى اشتهاره وتميزه في الطب فيلسوفاً وفقيها وأديباً، وسنعرض في هذا البحث بعض مشاهير الأطباء من أولئك الذين كانت لهم آثارهم القيمة في تاريخ الانسانية.

يعد الطبيب علي بن ربن الطبري من أوائل أطباء العصر العباسي ويكنى بأبي الحسن كان مولده ومنشأه في طبرستان ونزل الري وأخذ عنه محمد بن زكريا الرازي علم الطب ثم رحل الى سامراء وصنف فيها كتابه الشهير (فردوس الحكمة)[6] وكان يقوم بخدمة المتوكل العباسي وكان علي بن ربن طبيبا مثقفا يحيط بعلوم العربية والسريانية والطب والهندسة

والفلسفة، ويعد كتابه فردوس الحكمة من الكتب المهمة ذات الشهرة الواسعة في عالم الطب، وذكر ياقوت في معجم الأدباء أن أبا بكر بن كامل قال جئت الى أبي جعفر قبل المغرب ومعي ابني أبو رقاعة وهو شديد العلة، فوجدت تحت مصلاه كتاب فردوس الحكمة سماعاً له.[٧]

وقد بحث المستشرق براون هذا الكتاب وقدم عنه دراسة أولى وكان غرضه تقديم دراسة مفصلة عن الكتاب ولكن المنية عاجلته، فقد قسم الكتاب على سبعة أنواع واثنتي عشرة مقالة، إن الطبيب علي بن ربن بحث في تكوين الجنين والحبل وفي فسيولوجيا الأعضاء وفي الحواس الداخلية والخارجية وفي الطبائع والمشاعر وفي مزاج الأبدان وفي الصحة العامة وفي الاغذية. وبحث في الأمراض العامة من الرأس حتى القدم ومعلومات تشريحية مثل عدد العضلات وعدد الأعصاب وعدد العروق وبحث عن الفصد والحجامة والنبض وفحص البول كما بحث في المذاق والروائح والألوان، وبحث في أمراض العين والأجفان والأذن والأنف والرعاف والزكام والوجه والفم والأسنان، كما بحث في الأمراض العصبية وفي أمراض المعدة والكبد والاستسقاء وفي أمراض القلب والرئة والمرارة وفي أمراض الأمعاء ووجع القولون وأمراض الجهاز البولي وأمراض الجهاز التناسلي، وبحث في أنواع الحميات وفي أمراض المفاصل وفي الجذام والبرص والحكة والحصف والسرطان والاورام وداء الفيل والجروح والطاعون، وكتاب (فردوس الحكمة) يمكن عده دليلاً للأطباء الممارسين، وأهمية الكتاب العلمية تقع في كونه أقدم ما كتب في الطب العربي.[٨]

من مشاهير الأطباء الذين برزوا في العصر العباسي أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، وليد مدينة الري قرأ الحكمة على أبي معشر جعفر بن محمد البلخي المتوفى سنة ٢٧٢هـ[٩]، وقرأ علوم الطب على أبي الحسن علي بن ربن[١٠] وبرع الرازي في علم الطب وتعالت شهرته كما أقبل على دراسة العلوم الفلسفية فقرأها قراءة رجل متعقب على مؤلفيها فبلغ من معرفة غوابرها الغاية واعتقد الصحيح منها، وعلل السقيم، وألف في الطب كتباً كثيرة[١١] وأصبح رئيساً لمارستان الري مدة من الزمن[١٢].

وانتقل الرازي الى بغداد وقد سبقته شهرته اليها، وفي بغداد حيث الكثرة من الأطباء والعدد الكبير من المثقفين والعلماء في شتى ضروب العلم والمعرفة، اتصل بأبي الحسن علي بن عيسى[١٣] وفي بغداد عين الرازي رئيسا لمستشفى بغداد أيام المكتفي العباسي، وكان في ابتداء نظره يضرب العود ثم نزع عن ذلك[١٤].

والرازي أشهر أطباء العرب والمسلمين، له تراث ضخم واضح في مؤلفاته المتنوعة فقد كتب الرازي في المنطق وما وراء الطبيعة والإلهيات وعلم النفس والجغرافية والكيمياء والطب والتشريح وطب العيون والهندسة والموسيقى والسياسة وأبرز ما برز في مؤلفاته في علم الطب :ـ

١ـ كتاب من لا يحضره الطبيب، ويعرف أيضا بكتاب طب الفقراء، وفيه ذكر العلل ووصفها ومعالجتها بالأدوية الموجودة عادة في متناول اليد.

٢ـ كتاب المنصوري، وهو كتاب مختصر في عشر مقالات في علم الطب والتشريح والتشخيص وفي الأدوية والأغذية وفي حفظ الصحة ومداواة الجروح والقروح وفي السموم والحميات. وقد صنع هذا الكتاب لأبي صالح منصور بن نوح السامانيّ فنسب الكتاب اليه.[١٥]

٣ـ ولعل من أجل كتبه وأعمها فائدة وأكثرها شهرة كتابُ الحاوي[١٦] وقد جمع فيه جميع ما وجده للأقدمين

والمتأخرين في الامراض ومداواتها.

ومن اهم مؤلفاته العديدة رسالة في الجدري والحصبة نشرها أول مرة (جانينك عام ١٧٦٦ في لندن بالنص العربي والترجمة اللاتينية وكانت قد ظهرت طبعة للترجمة اللاتينية في البندقية عام ١٥٦٥م ونشرت الترجمة الانكليزية(كرين هل) من قبل جمعية (سيد نيهام) عام ١٨٤٨م، ويقول الاستاذ ماكس يوبركر في كتابه (قصة الطب): ان كتاب الرازي يعد لدى الجميع مفخرة من مفاخر التراث العربي ورونقه الرائع ... ويذكر أيضاً أن كتاب الحاوي له أهمية كبيرة في تاريخ علم الأوبئة، وإنه أول ما كتب عن الجدري، والرازي أول من نجح في تشخيص مرض الحصبة والجدري. وقد اكتشف زيت الزاج (حامض الكبريتيك) وكان قد نجح في استخراج الكحول باستقطار مواد نشوية وسكرية مختمرة، وهو أول طبيب طبق الكيمياء في التطبيب، وهو من أوائل الأطباء العلماء الذين عالجوا المرضى علاجا نفسيا مبنيا على معرفة المريض وحالته المرضية، أي دراسة المرض وتطوره، ويرى الرازي، أن العلاج بالدواء ليس محمودا في كل حالة فإن هنالك حالات يجب أن يعالج فيها المريض بالأغذية أو بالأدوية البسيطة اليسيرة أو بالوعظ والإيهام.

وبرز الرازي في الطبيعيات، فله الميزان الطبيعي الذي يقيس به الثقل النوعي وقد سبق غيره من العلماء في نقض القول بأن البصر يكون بخروج شعاع من العين الى الشيء المبصر، وقال بأنه يكون بصدور شعاع من الشيء المبصر الى العين.

والرازي الذي نبحث عنه لا يمكننا الاحاطة الكلية بكل جوانب شخصيته وتراثه وجهوده في هذا البحث الذي نقدمه، فهو عالم من علماء الإنسانية الكبار وكان كتابه الحاوي ومؤلفاته الطبية الأخرى يعتمد عليها أساتذة الطب في أوربا في عصر النهضة.

ومن الأطباء العلماء المشهورين(أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا) المولود سنة ٣٧٠هـ ـ ٩٨٠م في قرية من قرى بخارى واشتغل بالعلوم، وحصل الفنون، وأتقن علم القرآن الكريم وهو في العاشرة من عمره[١٧] وحفظ جوانب كثيرة من الأدب وأصول الدين، ثم رغب بعد ذلك في علم الطب وبرز فيه وصار من أشهر علماء زمانه، وذكر عنه الأمير نوح بن نصر الساماني صاحب خراسان في مرض ألم به، فاحضره وعالجه حتى برئ[١٨]، وتجول في كثير من البلدان الاسلامية، يتفحص المرضى ويعالج من يشكو السقم ويعلم الراغبين في صنعة الطب، وقد امتاز ابن سينا بذكائه المفرط ومنطقه الحسن، وعرف عن ابن سينا أنه طبيب وفيلسوف وعالم طبيعي، وقد عرف ابن سينا الفلسفة عن طريق الفارابي ولكنه توسع فيها ففاق الفارابي، ويعد ابن سينا هو المنظم الأول للفلسفة والعلم في الإسلام، ودون ابن سينا المنطق تدويناً واضحاً واستحق لقب المعلم الثالث، وكذلك عرف بلقب الشيخ الرئيس لمكانته السامية في علم الطب، كما كان ابن سينا مبرزا في الرياضيات وعلم الفلك والموسيقى.

من أشهر كتب ابن سينا الطبية كتاب القانون في الطب، يقول عنه المستشرق براون: إن كتاب القانون ارتفع الى منزلة فريدة بين التراث الطبي لأنه موسوعة طبية جيدة التنظيم وشهرة مؤلفه في العالم الاسلامي حكيما وفيلسوفاً علاوة على كونه طبيباً[١٩].

ويذكر نظامي عروض السمرقندي في كتابه جهار مقالة: وكل من يحيط علماً بما في المجلد الاول من القانون لا يخفى عليه شيء من أصول علم الطب وكلياته، ولو بعث بقراط وجالينوس الى الحياة لحق لهما أن يسجدا لهذا الكتاب.[٢٠]

ولابن سينا الطبيب العالم آراء قيمة في عالم الطب فقد فرق بين التهاب الحجاب الحاجز بين الرئتين وبين ذات الجنب، وأشار الى عدوى السل الرئوي، وقال بانتشار الأمراض المعدية بواسطة الماء والتراب ايضا، ووصف الاضطرابات الجلدية وصفاً دقيقاً، وتكلم على الأمراض الجنسية، وعرف الدودة المستديرة (الانكلستوما) والتهاب السحايا والالتهابات المختلفة في الصدر وخراج الكبد، ووصف اليرقان وصفاً واضحاً والسكتة الدماغية (موت الفجأة) كما عرف العقاقير المنشطة للقلب وتكلم على الآلام العصبية ومرض العشق، وكان يرى ما صار يراه الأطباء العلماء الكبار اليوم وأقروه إذ كان يعتقد بالاعتماد في المعالجة على مزاج الجسم، أي أن الجسم يستطيع بما فيه من قوة النمو ومن المناعة ان يتغلب على الأمراض التي تعتريه مع شيء يسير من المعالجة. أما إذا ضعف الجسم عن النمو والمقاومة فإن العلاج بعد ذلك لا يجدي

وعرف كذلك أن الحالات النفسية من الفرح والألم والخوف والقلق والاضطربات التي تواجه الإنسان تؤثر تأثيرا سيئا في سير المرض.

وقد عرف عن ابن سينا انه كان يطبق علم النفس وتجاربه في علاجه لبعض المرضى، فقد دعي يوما الى معالجة أحد أقرباء قابوس بن وشمكير ملك جرجان[٢١] بعد ان أعيت حالته المرضية كبار الأطباء فلما حضر بن سينا وعاين الشاب المريض وتفحص أمره تأكد له ان لا مرض به ولكنه عاشق، ثم أمسك بيد المريض وطلب من بعض الحاضرين أن يسرد طرقات جرجان ومحلاتها حتى اذا بلغ ذكر اسم محلة من المحلات ازداد نبض الشاب المريض ثم طلب ذكر بيوت تلك المحلة حتى اذا بلغ اسم بيت فيها تحرك النبض، ثم قال ابن سينا أريد ان تذكر أسماء من في البيت فلما ذكر اسم إحدى الفتيات من ذلك البيت تحرك النبض حركة شديدة عندئذ قال ابن سينا لأهل المريض إن هذا الشاب ليس به مرض وإنما هو عاشق لفلانة بنت فلان من البيت الفلاني والمحلة الفلانية ونصحهم بتزويجه منها وهو سبيل الشفاء[٢٢].

من هذا يظهر ان ابن سينا كان يطبق العلم في علاجه للمرضى ويتبع الطرق العلمية في التشخيص والعلاج، وهو يباشر الطب على أنه علم طبيعي بعيد عن الأوهام والخرافات ويستعين في علاجه بذلك النظر السليم وتلك الفطنة النادرة ويحيط بعوارض الأعضاء ولا يهمل مداخل النفس في تقويم الأجسام.

قال كمستون cumston في كتابه تاريخ الطب من عهد الفراعنة الى القرن الثاني عشر: ما على الانسان الا ان يقرأ جالينوس ثم ينتقل الى ابن سينا ليرى الفارق بينهما، فالاول غامض والثاني واضح كل الوضوح، والتنسيق والمنهج المنتظم سائدان في كتابة ابن سينا، ونحن نبحث عنهما في كتابة جالينوس ...وبين كمستون جملة من التصحيحات التي أدخلها ابن سينا على طب الأقدمين في عوارض الجنون والفالج وأمراض الكبد والصدر والجراحات وعلاقة بعض الأمراض بالخمر، فإذا هي خطوات أجيال خطاها رجل واحد قليل النظير.

وينتهي كمستون الى القول: لعله لم يظهر قبله ولا بعده نظير لهذا النضج الباكر والفطنة الواسعة مقرونة بمثل هذه المثابرة في مثل هذا الأفق الفسيح.

أجل، فقد حاز ابن سينا شهرة واسعة، نتيجة جهوده العلمية الرائعة، فانتشرت أبحاثه في المشرق والمغرب، قال نوبرجر Neuburger في كتابه تاريخ الطب: إنهم كانوا ينظرون الى كتاب القانون كأنه وحي معصوم ويزيدهم إكبارا

له نسيقه المنطقي الذي لا يعاب ومقدماته التي كانت تبدو لأبناء تلك العصور كأنها القضايا المسلمة والمفردات البديهية.

ومن الجدير بالذكر ان كتاب القانون بقـــي معولا عليه في علم الطب وعمله ستة قرون وترجمه الفرنج الى لغاتهم واصبح كتاب القانون مرجعاً للدراسات الطبية في جامعات أوربا، فقد كان يدرس ذلك الكتاب النفيس في جامعتي مونبيليه في فرنسا وفي جامعة لوفان Louvain وهي مدينة في بـــلجيكا اشتهرت بجامعتها الكاثوليكية التي أسست سنة ١٤٢٥م.

وننتقل الى طبيب عالم آخر هو الحسن بن الحسن بن الهيثم المولود في البصرة سنة ٣٥٤هـ ـ ٩٦٥م وانتقـــل الى مصر وكان فاضل النفس قوي الذكاء متقناً في العلوم لم يماثله أحـــد من أهل زمانه في العلم الرياضي ولا يقـــرب منه وكان دائم الاشتغال كثير التصنيف وافر الزهد محباً للخير[٢٣] وقد استدعاه الحاكم بأمر الله الفاطمي الى مصر لكي يعمل سدا على نهر النيل يستفاد بـــه في الري لما بـــلغه خبر نبـــوغه وعلو همته في العلوم الهندسية وفي بناء الجسور[٢٤].

اشتهر ابن الهيثم بصناعة الطب ولكن ميله للبحث العلمي والتجربة ونبـــوغه في الرياضيات دفعه الى العمل التجريبي في الضوء وفي دراسة وتشريح العين وفســـلجتها وإن عمله ذلك شبيه بالجهود القيمة التي يقوم بها العلماء الأطباء حين ينصرفون الى البحوث العلمية في الفسيولوجي والكيمياء الحيوية وغيرها من العلوم التي تخدم الغرض الطبي، دون توافر الوقت الكافي لهم لمعالجة المرضى ومداواتهم وبحوث ابـــن الهيثم في العين وكيفية تكوين الصورة خدمت علوم الطب والانسانية أجل الخدمات، فابن الهيثم أول من كتب عن أقسام العين ورسمها بوضوح تام، ووضع أسماء لبعض أقســـام العين أخذها عنه الافرنج وترجموها الى لغاتهم[٢٥] فمن الاسماء التي وضعها ابـــن الهيثم: الشبـــكية والقرنية والسائل الزجاجي والسائل المائي.

وكانت لبحوث ابن الهيثم اهمية كبيرة في تقدم العلوم التي كانت لها آثارها البعيدة في تطور العلم وازدهاره وان دراسة ابن الهيثم لنظرية انعكاس الضوء والعدســـات والمعضلة المعروفة باسمه(معضلة ابن الهيثم) وكذلك وصفه الدقيق للعين وكتابـــه (المناظر) ترك أثراً عميقاً وباعثاً الى البحوث والأعمال التي قام بها كل من روجر بيكون الانكليزي وفيتلو الألماني[٢٦].

ومن الأطباء العلماء المشاهير، علاء الدين أبو الحسن علي بن أبي الحزم القرشـــي المعروف بابـــن النفيس، المولود ســـنة ٦٠٧هـ قرب مدينة دمشق، وقد اشتهر هذا الطبيب الحاذق بتشريح القلب وتشريح الحنجرة، لما كان يرى من الصلة بـــين التنفس والنبض أو بين التنفس وانتقال الدم من الرئة الى القلب ومن القلب الى الرئة. ونتيجة الممارسة المســـتمرة توصل ابـــن النفيس الى اكتشاف الدورة الصغرى للدم، وعمل ابن النفيس هذا يعد كشفاً جديداً للمعرفة الانسانية توفي ابن النفيس ســـنة ٦٨٧هـ[٢٧].

ومن مشاهير أطباء العرب في الجراحة، خلف ابن عبـــاس الزهراوي الأندلسي المكنى بأبي القاسم، ولد في مدينة الزهراء القريبة من قرطبة وإليها نسبته، وهو أشهر من ألف في الجراحة وأول من استعمل ربط الشريان لمنع النزيف، من أشـــهر تآليفه الطبـــية: كتاب التعريف لمن عجز عن التاليف ... وهو كتاب عام في الطب، يقع في جزءين وقد عالج الزهراوي الجراحة على أنها فن قائم بنفسه، مستقـــل عن المداواة ومتصل بالتشـــريح، وبقيت كتب الزهراوي تدرس في جامعات أوربا مثل مـــالرنو ومونبيلية حتى القرن السابع عشر، وقد طبع كتابـــه التعريف باللغة اللاتينية في القرن الخامس عشـــر، وكانت مواضيعه في الأعمال الجراحية ولا سيما فتح المثانة وإخراج الحصاة دروساً

متداولة بين طلبة الطب وأبناء صناعته، توفي الزهراوي سنة ٤٢٧ هـ[٢٨].

هناك العدد الكبير من الأطباء أمثال سنان بن ثابت والمختار بن الحسن بن عبدون ومحفوظ بن عيسى الطبيب النصراني نزيل واسط وهرون بن صاعد وهبة الله بن الحسن الأصفهاني وابن التلميذ وابن بطلان ومحمد بن علي السمرقندي وغيرهم كثيرون كان لأبحالهم وتجاربهم وعلومهم الأثر الكبير في النهضة العلمية التي كانت مظهرا واضحاً من مظاهر الحضارة العربية ومنبعاً أصيلا للتراث الانساني.

ومن الطريف أن نذكر بعض النسوة اللاتي اشتهرن بصناعة الطب، من أولئك النسوة، أخت الحفيد بن زهر الأندلسي وابنتها، وكانتا عالمتين بصناعة الطب ولهما خبرة جيدة بمداواة النساء وكانتا تدخلان على نساء المنصور الأندلسي وأهله ولا يقبل المنصور سواهما[٢٩] واشتهرت في العصر الأموي امرأة اسمها زينب طبيبة بني أود كانت عالمة بالأعمال الطبية ومداواة العين بالجراحة[٣٠].

ومن الملاحظ على صناعة الطب عند العرب، الاهتمام بالتخصص فهناك الطبيب المتخصص بالجراحة العامة وهناك المتخصص بطب العيون (الكحال) والاختصاص بأمراض النساء والاختصاص بأمراض الأسنان (الأسناني) ومن يعالج المجانين والفاصد والمجبر، فالاختصاص واضح في صناعة الطب العربي، فالطبيب علي ابن عيسى كان كحالا أي طبيب عيون، والزهراوي كان جرائحياً أي مختصاً بالجراحة، وسنان بن ثابت كان للأمراض العامة، وما هو معروف بمفهوم الطب عندنا مختص بالأمراض الباطنية.

ولابد هنا من استعراض بعض الأدوات الطبية التي كان يستخدمها الأطباء المسلمون في العمليات الجراحية والكشف عن بعض الأعراض المرضية، من تلك الأدوات: ملزم البواسير وهي آلة اشبه بالمبضع تستعمل للكشف عن البواسير، ومجرفة الأذن، ومخرط المناخير، ومكاوي الطحال وزراقان القولنج، وهي آلة من آلات الجراحة تستعمل بنوع خاص للقولون، وقناطير التبويل، وهي آلة تستعمل لقياس أمراض المثانة، ومفتاح الرحم وهي آلة تستعمل لكشط الزائد بالرحم والتي تمنع الحمل اذا لم تكشط، ومحك الجرب، ومنشار القطع وخشبة الكف.

ومن الطريف أن الدولة العباسية في القرن الرابع الهجري، صارت لا تقر إجازة الطبيب إلا بعد اجتيازه امتحاناً يشرف عليه أطباء معتبرون، وانتشرت المستشفيات التي كانت تعرف بالبيمارستانات في أنحاء مختلفة من العالم الاسلامي وكانت هناك قاعات خاصة للنساء، كما كانت بعض تلك المستشفيات مراكز لتعلم صناعة الطب، فالمارستان العضدي الذي أمر بإنشائه عضد الدولة البويهي، كان فيه أربعة وعشرون طبيباً منهم علي بن ابراهيم بن بكش وكان طبيباً فاضلا ماهراً عالماً بصناعة الطب متقناً لها غاية الإتقان، وكان يدرس في المارستان الطب ويفد إليه الطالبون وكان مكفوفاً[٣١] وكان من أطباء المستشفى العضدي أبو الحسن بن كشكرايا المعروف بستلميذ سنان[٣٢] وأبو يعقوب الأهوازي[٣٣] وكان من الكحالين الفضلاء أبو نصر الدحين وابن مندوبه الطبيب (احمد عبد الرحمن) وله في الطب عدة تصانيف[٣٤] ومن الجراحين أبو الخير[٣٥] وأبو الحسين بن نفاخ[٣٦] ومن المجبرين أبو الصلت، إذن جمع المارستان معظم الاختصاصات الطبية.

وهكذا أصبحت لأفكارهم وتجاربهم وكتاباتهم الآثار البعيدة في نشر العلوم الطبية، وقد انتظمت دراسات الطب عند إقرار مواضيع الطب في مناهج تعليم المدارس الاسلامية في

القرون الوسطى فكانت المدرسة المستنصرية أول مدرسة في العراق يدرس فيها الطب بالطرق العلمية ووفق النظم الجامعية، كما درس موضوع الطب في المدارس الاسلامية بدمشق والقاهرة وغيرهما من حواضر العالم الاسلامي.

ومن الجدير بالذكر أن العرب هم أول من استعمل المرقد(البنج) في إجراء العمليات الجراحية[٢٧] كما أنهم أول من استخدم المواد الكاوية في الجراحة كما يستخدمها أطباء عصرنا الحديث، ووصفوا صب الماء البارد لقطع النزيف وعالجوا خلع الكتف بالطريقة المعروفة في الجراحة برد المقاومة الفجائي، كما أنهم أول من وصف علاج اليرقان والهواء الأصفر، وكما اشرنا سابقاً أن العرب أول من وصف الحصبة والجدري.

هذه نبذة عن علم الطب والأطباء العرب ومجهوداتهم العلمية التي كان لها الفضل الكبير في تطوير وازدهار العلوم الطبية، والحق أن العرب كانوا حملة مشعل الحضارة في وقت كانت فيه أوربا ترقد في سبات طويل، كما كان لهم السبق في كشف العديد من الحالات المرضية وابتكار الكثير من الأدوية والآلات المستعملة في الطب، وظلت أوربا قروناً عديدة تعمل بنهج العلماء العرب والمسلمين وتستعين بآرائهم وأفكارهم وتستخدم أساليبهم في الكشف والمعالجة، وفقنا الله لاستعادة مجدنا الزاهر وإحياء تراثنا العظيم.

الهوامش

(١) القفطي: تاريخ الحكماء ـ ص٢٨٦.

(٢) القفطي: ص١٦٠.

(٣) القفطي: ص١٣٢ ـ ١٣٣

(٤) سنان بن ثابت: ابن قرة الحراني. طبيب عالم. أصله من حران ومنشأه ببغداد، كان رفيع المنزلة عند المقتدر بالله العباسي، توفي ببغداد سنة ٣٣١هـ ـ ٩٤٣م.

(٥) القفطي: ص١٩١.

(٦) ابن النديم: الفهرست ص٤٢٦.

(٧) ياقوت ـ معجم الأدباء جـ ٦ ص٤٢٩.

(٨) براون ـ الطب العربي ص٤٥ ـ ٤٨.

(٩) أبو معشر، جعفر بن محمد بن عمر البلخي، عالم فلكي مشهور، قال القفطي في وصفه: عالم أهل الاسلام بأحكام النجوم. وكان أعلم الناس بتاريخ الفرس وأخبار سائر الأمم، أقام زمنا ببغداد ومات بواسط، وكان يعرف عند الغربيين في العصور الوسطى باسم Albomasar له مؤلفات كثيرة.

(١٠) القفطي طبقات الأطباء ص٤١٤.

(١١) ابن خلكان ـ وليات الاعيان ـ جـ ٤ ص٢٤٤

(١٢) ابن جلجل ـ طبقات الاطباء والحكماء ص٧٧

(١٣) علي بن عيسى بن داود بن الجراح، أبو الحسن البغدادي، وزير الخليفة العباسي المقتدر بالله والخليفة القاهر بالله، وهو من العلماء الرؤساء من أهل بغداد، فارسي الأصل نشأ كاتبا ولي مكة واستقدمه المقتدر الى بغداد سنة ٣٠٠ هـ فولاه الوزارة غير مرة. توفي ببغداد سنة ٣٣٤ هـ ـ ٩٤٦م، له كتب منها: (ديوان رسائل) و(معاني القرآن) و(جامع الدعاء) وكتاب الكتاب وسياسة المملكة وسيرة الخلفاء. وللكاتب

الانكليزي Harold Brown كتاب في حياة علي بن عيسى وعصره، اسمه

The life and Times of Ali Ibin Isa , the good Visirr

(١٤) ابن جلجل ــ طبقات الاطباء والحكماء ــ ص٧٧

(١٥) ابن خلكان ــ وليات الأعيان جـ ٤ ص٢٤٤

(١٦) ويعرف كتاب الحاوي ايضا بـكتاب الجامع الكبير، وكانت مسودات الكتاب بعد وفاة الرازي عند ابنه، فبذل ابن العميد مبالغ كبيرة وحصل عليها وقام بترتيبها مستعينا بتلاميذ الرازي. وقد ترجم الكتاب الى اللاتينية وطبع بايطاليا سنة ١٤٨٦ ثم أعيد طبعه في البندقية سنة ١٥٠٩ وسنة ١٥٤٢م.

(١٧) ابن خلكان ــ جـ ١ ص٤٢٠

(١٨) المرجع السابق.

(١٩) براون ــ الطب العربي ــ ترجمة الدكتور داود سلمان علي ص٦٣.

(٢٠) عروض السمرقندي ــ جهار مقالة ص٧٦.

(٢١) قابوس بن وشمكير: أبو الحسن، الملقب شمس المعالي، أمير جرجان وبلاد الجبل وطبرستان وليها سنة ٣٦٦هـ واخرجه منها عضد الدولة البويهي سنة ٣٧١هـ ثم استعادها قابوس سنة ٣٨٨هـ، ونفر منه شعبه وقامت الثورة فخلعه القواد وولوا أبناءه وكان نابغة في الأدب والانشاء وجمعت رسائله في كتاب سمي (كمال البلاغة) وله شعر في العربية والفارسية. توفي سنة ٤٠٣هـ.

(٢٢) جهار مقالة: ص٨٣.

(٢٣) ابن أبي أصيبعة ــ طبقات الأطباء جـ ٣ ص١٤٩.

(٢٤) القفطي ــ ص١٦٦ (٢٥) الشطي ــ موجز تاريخ الطب ص١٢١.

(٢٦) الدميلي ــ العلم عند العرب ص٣٠٦

(٢٧) ابن تغري بردى ــ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص٣٧٧.

(٢٨) ابن أبي أصيبعة ــ طبقات الاطباء جـ ٢ ص٥٢، ابن عميرة الضبي ــ بغية الملتمس ص٢١٧ ــ العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية ص٣٥.

(٢٩) طبقات الأطباء: جـ٢ ص٧٠

(٣٠) طبقات الأطباء ــ جـ١ ص١٢٣

(٣١) تاريخ الحكماء ــ ص١٣٥

(٣٢) المرجع السابق ــ ص٤٠٣

(٣٣) المرجع السابق ــ ص٤٣٦

(٣٤) تاريخ الحكماء ــ ص٤٣٨

(٣٥) المرجع السابق ــ ص٤٠٧

(٣٦) المرجع السابق ــ ص٤٠٣

(٣٧) طبقات الأطباء ــ جـ١ ص٢٣٢

صدر حديثاً عن دار الشؤون الثقافية العامة